زوالنون أيوب ورِيادة الفنّ القصصيّ في العِراق

بقلم الدكتور عمر الطالب

ان المرحلة التي حاولت القصة العراقية الحديثة ان تقوم فيها على أسس اثبت ، وأركان أمتن ، هي المرحلة التي ظهر فيها ذنون أيوب ، فقد سعى الى انتاج أدب حي ، يجمع الى حاجات الواقع الاجتماعية ، حاجات الفن ومقوماته . فالواقع اننا نشهد في هذه المرحلة ، ولادة آثار فنية ، تشبه الاثار المصرية او اللبنانية ، التي صدرت في ذلك العهد ، بفرق واحد ، هو ان الآثار العراقية ، ظهرت اثر فترة أقصر من فترات التطور (١) ، لان المرحلة التي سبقت ظهور ايوب كانت مرحلة تحسس وتلمس ، لان في آثار محمود احمد السيد لهجة وعظية وتقريرية أضرت بالناحية الفنية في قصصه . أما انور شاؤول الذي حاول ان يسبغ على قصصه طابعا فنيا اوضح فقد كانت معظم اقاصيصه غثة باردة . ويعد ذنون ايوب (٢) اغزر كتاب القصة في العراق ، فقد اصدر في نهاية الحرب العالمية الثانية رواية الدكتور ابراهيم ونسع مجاميع قصصية .

---

(١) سهيل ادريس (القصة العراقية الحديثة) ، الآداب ، العدد الثاني عام ١٩٥٣ م .

(٢) ولد ذنون ايوب عام ١٩٠٨ في مدينة الموصل في أسرة برجوازية من آب تاجر هو الحاج ايوب العبد الواحد ، له باع طويل في الحركة الوطنية في العراق ايام العصر العثماني والسيطرة الانكليزيه ، وعضو في حزب العهد الذي قاوم الاتراك ، دعا للقومية العربية وساهم في انشاء المدرسة الاسلامية الدينية وهي اول مدرسة علمت العلوم للطلبة باللغة العربية . وأمه خديجة العبد الله الحجو من عشيرة (الجحيش) ذات نزعة صوفية . أكمل ذنون دراسته الابتدائية في المدرسة الاسلامية في الموصل والدراسة الثانوية في ثانوية الموصل . ودخل دار المعلمين العليا وتخرج منها عام ١٩٢٨ م مدرسا للعلوم الطبيعية والرياضية ، وتنقل في خدمة وزارة المعارف مدرسا ثم مديرا في مدرسة متوسطة ثم مساعدا المدير في مدرسة ثانوية فعميدا لمعهد الفنون الجميلة في بغداد فنائبا عن الموصل ممثلا عن الجبهة الوطنية التي شكلت عام ١٩٥٤ من احزاب وطنية ثم متقاعدا بعد حل المجلس ومديرا لمطبعة . ورحل الى فيينا ومكث فيها اربع سنوات . وعاد الى العراق بعد ثورة الرابع عشر من تموز وعين مديرا للارشاد والتوجيه العام في مديرية الاذاعة والتلفزيون العامة ، وبعد سنة من عمله في الاذاعة فضل شغل منصب ملحق صحفي في الخارج بسبب خلافه مع الشيوعيين الذين كانوا يديرون الامور في العراق اثناء حكم عبد الكريم قاسم .

وقد تزوج ايوب مرتين : المرة الاولى من فتاة منعلمة ، والمرة الثانية من فتاة جاهلة ، وما كان موفقا او سعيدا في زواجه ، وقد صور ذلك في العديد من اقاصيصه .

قرأ ايوب لعدد كبير من كتاب الشرق والغرب . وقد غرست كثرة القراءة في نفسه روح العدل والتحمس للحقيقة والصراحة في القول والعمل ، وكره النفاق ، وسرعان ما وجد نفسه يصطدم مع رؤسائه في العمل ومع الهيئات الحكومية والسلطات العليا. ووجد نفسه أخيرا يدرس النظم السياسية ويتحمس لبعضها كالاشتراكية والشيوعية ، وآزر التنظيمات التي تدعو لها وأصبح عضوا في حزب الاصلاح الشعبي ، وكان الشيوعيون يعملون في صفوف هذا الحزب وهو حزب سري ناصر انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ م . ووقف ضد ثورة مايس واعتبر حكم رشيد عالي الكيلاني حكما فاشيا . واتصل بأيوب يوسف سلمان (فهد) سكرتير الحزب الشيوعي العراقي ، وقد تأثر ايوب به وأعجب بنشرة الحزب الشيوعي العراقي المسماة ب « الشرارة » . وانضم ايوب الى الحزب الشيوعي العراقي اثناء الحرب العالمية الثانية واصبح احد اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . ورمى الى جمع الشيوعيين مع الديمقراطيين في جبهة واحدة مما اوجد التصدع بينه وبين اعضاء الحزب الشيوعي المخالفين له في الرأي .

آمن ايوب بدكتاتورية البروليتاريا ولكنه لم يؤمن ببيروقراطية الحزب او تسلط البرجوازية الصغيرة على الحزب ، ولم يلتزم باوامر الحزب ففصل منه مع اعوانه عندما طلب عقد مؤتمر لحل مشاكل الحزب ولم توافق اللجنة المركزية .

أصدر ايوب نشرة سرية ضد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أسماها « الى الامام » ثم انضم مع رفاقه الذين فصلوا من الحزب الشيوعي لوقوفهم الى جانبه ، الى الحزب الوطني الديمقراطي ، بعد ان اصبح حزبا علنيا . وكان يكتب في الملحق الادبي لجريدة « الاهالي » لسان حال الحزب . ورشحه الحزب ممثلا له عن الموصل مرتين ، الاولى عام ١٩٤٨ ولكنه فشل امام ممثل الحكومة ، والثانية عام ١٩٥٤ .

كتب اليّ في رسالته يقول : « وقد وجدت بعد مدة ليست بالقصيرة ان النظم وحدها لا تشيع العدل اذا كان مطبقوها قليلي الوجدان او سيئي الاخلاق ، كما وجدت ان النظم التي تعد عصرية كالشيوعية مثلا أبعد المذاهب عن الحرية التي تعشقتها » .

بدأ ايوب الكتابة عام ١٩٢٩ ، وأول اثر له لم ينشر وهو تقرير رسمي مفصل عن متصرف جائر أعتدى على الطلاب وعلى المدرسين لانهم لم ينفذوا اوامره في مدينة الناصرية . وكتب اول قصة بعد زواجه الاول مباشرة وخلافه مع زوجته الاولى حول مفاهيم واعتبارات معينة ، فاحدثت قصته ضجة مما جعله ينصرف الى الكتابة للدفاع عن وجهة نظره وتلهجوم على الاعتبارات والتقاليد التي يمقتها ، والنظم السياسية الجائرة غير المنطقية ، وخصوصا الاحداث الشاذة التي سادت العراق . واول اثر مطبوع له ترجمة لقصة « المكفول » للكاتب الروسي جيركوف صدرت عام ١٩٣٣ ، واشترك في تحرير عدة مجلات منها : « المجلة » في الموصل و « العصر الحديث » في بغداد . وكتب في الصحف والمجلات العراقية والعربية . وانتاجه غزير ، فقد اخرج الى السوق في عشرين عاما ثلاث عشرة مجموعة قصصية وثلاث روايات وترجم اربع روايات . وضم مقالاته في كتابين يحتويان على مقالات متنوعة في الادب والسياسة والاجتماع .

وموضوعات ايوب منزعة من البيئة العراقية ، فهو لا يكتب عن الماضي ولا يهتم به لانه متعلق بالواقع بقوة . وبعد عشرين سنة من انغماره في الكتابة لم يغير موضوعاته ولم يطرأ عليه اي تغيير في نزوعه الى الواقع المجرد ، وان حدث شيء من التغيير فذلك قاصر على اسلوبه فقط . فقد صفا وعمق وارتفع عن اسلوب الصحافة الذي شاع في كتاباته الاولى .

توزعت معظم قصص ايوب بين قضيبي الاقطاع الديني والاقطاع الزمني . وقضية المرأة التي نادى بها ، كما نادى بالحرية كاملة للانسان وتمرد فيها ايضا على جملة التقاليد والشرائع والموضوعات الاجتماعية . ومع ان ايوب لم يكن عالما اجتماعيا ولا باحثا نفسيا ولا رجلا اقتصاديا ، الا انه كثائر ، كان يعوزه سلاح ضروري ، لكي يحتفظ بايمانه وفعاليته الثورية ، ذلك هو سلاح الفهم الصحيح لمنشأ الاوضاع والرذائل التي يحاربها ويطمع في ازالتها ، والفهم الصحيح لطرق هذه الازالة . ان الثائر الذي يحتدم صدره بعاطفة الثورة وهو لا يفهم منشأ الرذائل التي يثور عليها ، ولا طرق ازالتها ، لجدير بان يفني نفسه في صراخ الاحتجاج .

فهو في قصة « ساقطة » يصور لنا فتاة لا يمنعها ذكاؤها من السقوط . ولكنها عاهرة من نوع غريب ، فهي تقرأ الادب وتناقش فيه ، ولها فلسفة في الحياة : (اني احترف الحب كما تحترف انت التعليم ويحترف غيرك المتاجرة او الزراعة ، ولعل الفرق بيني وبينكم ، ان أغلبكم يحترف الحرفة التي يريدها ، اما انا فقد احترفت الحرفة التي سقطت اليها رغم انفي ... على ان ثمة تشابها بين حرفتي وحرف كل الناس ، وهو اني أقوم كما يقوم غيري باعمال كثيرة لا تتفق وميولهم حينما لا يجدون مناصا ، واسمح لي ان اقول باني لا اسلب الناس كما تسلبونهم ، وربما كنت الوحيدة التي قدم اكثر مما اخذ (٣) . وفي هذا القول شطط وتشجيع على الفساد والتحلل لا يتفق والرسالة الاجتماعية التي يحملها ايوب .

وقد دفعه تمرده هذا على التقاليد والشرائع ، ان يقف من ضحايا المجتمع وطردائه ، موقف الذي يعذرهم فيما يجترحون من آثام ، كما في أقصوصته « ساقطة » من مجموعته القصصية الثانية « ضحايا » . ويرى فيهم طائفة من الضعفاء سدت دونهم طرق الفضيلة ، وجرى عليهم القدر بما لا حيلة لهم فيه . ويبين ايوب في اكثر من مناسبة ، طبيعة هؤلاء الضحايا ، الذين اندفعوا الى الشر لقسوة ما يحيط بهم من نظم اجتماعية فاسدة .

وتتسم معظم قصصه بميسم الفجيعة ، وتطبع بطابع المأساة ، ولا يرى ايوب في المجتمع غير هذه الفواجع والمآسي .

كان ايوب في آثاره الاولى يميل الى تلقين آرائه وعرض افكاره وابرازها في قالب تقريري جاف واثارتها اثارة مباشرة ، وامتلأت لذلك اعماله الاولى بصوته هو لا باصوات ابطال اقاصيصه ، وازدحمت بكثرة من الخطب والمواعظ والنصائح وانواع الاستطرادات ، كما شحنت هنا وهناك بتدخلاته واطلالات رأسه ليبين رأيا او يسوق دليلا ، او يرضي نفسه المتمردة ضد التقاليد البالية ، او ليوحي لنا بما يجب ان نؤمن به ، ومع ان تدخله كان يجعله احيانا وسيطا مسليا وباعثا على التشويق والحماسة لما حوى من تمرد وانسانية ، فان تقريراته العديدة وتدخلاته المستمرة تعوق سير الحادثة وتقطع خيوط القصة وتشكل فيها نقيصة فنية .

وبناء القصة عند ايوب في آثاره الاولى ، بناء (الريبورتاج) ، فلا حبكة لقصته ولا تصميم ولا تخطيط بل انسياب دائم في عفوية ، وذهاب وراء مساري جانبية وحوادث هامشية قد يكون لها مساس بهيكل القصة ، وقد لا يكون ، ولكنها تفاصيل لا فضل للكاتب فيها ، الا انه نقلها .

---

(٣) ذنون ايوب .. ضحايا .. ص ١٥ .

وأسلوبه اللغوي بسيط بساطة الريبورتاج الصحفي ، ونعثر فيه على بعض الاخطاء اللغوية . وقد دفعه نزوعه نحو تقاليد المجتمع الى العناية بالسرد اكثر من عنايته بالحوار . بل ان الحوار ليبهت في آثاره الاولى وتقوم مقامه حركة استطرادية . ويبرز في هذه الحركة اهتمام خاص بالشخصية ، شخصية الكاتب نفسه ، وشخصيات ابطاله ، وكثيرا ما يحس ذاته بل انه ليجعلها بؤرة التجربة ، ولم يكتف بذلك بل ذهب الى تقمص الكثير من شخصياته ، وفي هذه الحقيقة تكمن ميزات مخلوقاته ، انه يخلق نفسه فيها ، يصورها كما تراها عيناه .

ان ايوب كاتب ذاتي ، كما هو كاتب اجتماعي سياسي ، يلتقط موضوعاته مما يحيط به من احداث ، ومما يكتنف حياته من تجارب ، ويمكننا ان نتعرف على دقائق حياته الخاصة من خلال اقاصيصه . في حياة ايوب لغز كبير يحاول ان يتستر عليه ، حبه لفتاة ايرانية ، تعرف عليها اثناء زيارته لايران ، ثم تزوجها بالمتعة ، وجاء بها الى العراق ، ولكنه سرعان ما ملها ، وفر الزواج . طلب اليها ان تتركه ولم تفد توسلاتها في ان يبقيها خادمة لزوجه ، وعندما حرمت من عطفه انتحرت .

وقد صور هذه المأساة في أقصوصته « الجريمة والعقاب » من مجموعته الثانية « ضحايا » ويسرد اسباب فشله في زواجه الاول في اقصوصة « زوجة » . وفشله في زواجه الثاني في اقصوصة « التمرد » . تناول كل مجموعه من مجموعات ايوب القصصية ، لونا من الافكار يربط بين مختلف الموضوعات . في مجموعته الاولى « رسل الثقافة » الصادرة عام ١٩٣٦ يصور كفاح الطبقة المثقفة من معلمين ومدرسين وصلتهم بمدير المدرسة والطلاب ، وصلة ادارة المدرسة ومدرسيها بولاة الامور .

وهو يحدثنا حديث العارف الخبير : في اقصوصة « بفلاوة » يعرض صورا عن عبث التلاميذ بمعلميهم ، وصورا من حيل المعلمين امام ولاة الامور . وكذلك في قصص المجموعة الاخرى مثل (الدرجات النهائية ، سيرة وسيرة ، السيد عبيد في لهوه) .

وتقدم لنا المجموعة الثانية « ضحايا » الصادرة عام ١٩٣٧ نماذج من هؤلاء الذين يسقطون ضرعى التقاليد والاوهام التي تطغى على المجتمع فتفسده ، فتاة تنتحر لان ذويها يفرضون عليها الزواج بشيخ مسن ، ولكنها تسلك « طريق الخلاص » . وتلك ايضا فتاة لا يتردد اخوها في قتلها اذ يراها تتحدث الى جار لها « شرف » .

على ان لهجة النقد الاجتماعي تبدو اكثر ضمورا في مجموعته الثالثة « صديقي » الصادرة عام ١٩٣٨ ، وتضم بضع صور لابطال ثائرين على التقاليد والقيود الاجتماعية ، فاقصوصة « عندما ثار العاصفة » ، تقدم لنا موظفا برما بقيود وظيفته ومتطلباتها ، حتى اذا صرف عن الخدمة ، وهذا ما كان ينتظره بفارغ صبر ، انخرط في العمل الحر ، ولم يتردد في ان يعمل سائق سيارة ليكسب حياته بنبل وشرف ويعيل بعد ذلك خمسة عاطلين عن العمل ، وفي هذه الاقصوصة حس فكاهي دقيق يجعل لها قيمة خاصة . واما اقصوصتا « النهاية » و « التمرد » فتضمان آراء كاملة في فلسفة الثورة ، وردها على اكاذيب المجتمع .

وفي مجموعته الرابعة « وحي الفن » الصادرة عام ١٩٣٨ ، نلتقي بشخصيات تكاد تكون غريبة ، وهي شخصيات انعبها الفساد وملأها المجتمع المزيف تبرما بالحياة فسعت الى التماس السلوى والهرب من الواقع بالانغمار في دنيا الفن . ونقرأ احدى روائع المؤلف القصصية « حلم على نغم » التي تروي قصة تكون حلم على نغمات مقطوعة ريمسكي كورسكوف « شهرزاد » ، فان حركات هذه الموسيقى تعبر في ذلك الحلم عن مختلف مظاهر الفساد في السياسة الحكومية حتى تبلغ نهاية المقطوعة في غرق باخرة السندباد ، وهي ذات

مغزى بعيد .

« وشعرت فجاة بان الجو قد تلبد بغيوم الفوضى ، وسمعت مهمهة عاصفة التمرد ، وما هي الا هنيهة حتى تحول المجتمع الى كتلة هائلة مرعبة تنذر بالويل والثبور ، وصرخ احد الحاضرين : مونا للطفاة ، فلنحطم صاحب الشخصية البارزة ! وانطلق الجميع كالعاصفة الهوجاء يصحبها بريق يعمي الابصار ورعد يصم الآذان ، حتى اذا اقتربوا من البناية ذات الابراج وقف في وجوههم صف متراص من الحرس يصوب نحو صدورهم آلوت الزؤام . وكان صاحب الشخصية العظيمة واقفا قرب النافذة لا يجسر حتى على اخراج رأسه مصفر الوجه يرتجف فرقا ويتصبب عرقا باردا » (٤) .

وفي « عظيم » يصور لنا كاتبا يؤمن بمثله العليا ولا ينحدر الى حمأة الخيانة رغم المغريات التي تحيط به ، وكانه يصف نفسه ويتحدث :

« وهو مفرم بالحملة على المعارف والتقاليد ، ينتقد المقاييس الخلقية الشائعة والعادات المرعية ، كذلك كان غير ما هو في الضرب على الاوتار الحساسة والنغمات المألوفة .

« وكان يطرد شياطين الغواية صارخا : اليكم عني ، فليس هذا طريق المجد » (٥) .

وفي « مؤامرة الاغبياء » يتحدث عن نفسه ايضا على لسان (نوح) بطل الاقصوصة الذي آحب سماع القصص منذ صغره ثم هوى المطالعة وأحبها . ولما بدأ حياته العملية وضع هدفه الذي استمده من مثله العليا : الدفاع عن الوطن والقيم التي يؤمن بها رغم فساد المجتمع وكثرة العراقيل .

« علم ان مقياس المرء ما يملكه من حنكة ودهاء ، وان الاخلاق لا مفهوم لها وان الاخلاص يدل على السذاجة والحمق ، والشرف شيء مكروه . والصدق معناه الجنون . وخيانة الواجب اول شروط النجاح . والشعوذة رأس مال من يبغي التقدم . والخدمة الصحيحة تأتي بآسوأ العواقب . والوطنية اسم بلا مسمى ، والقومية بناء قصور لبضعة اشخاص فقط ، والشعبية والشعوبية ، والشيوعية تدل على مفهوم واحد ... وحدث تبدل اساسي في نفسيته وطباعه ، فقد انقلب من شخص رضي هادىء الى متمرد على تلك الاوضاع السيئة التي أصبح امرها غير خاف على العام والخاص » (٦) .

وفي (النبي) هجوم على الدكتاتورية والفاشية وفي (اخيرا) تصوير لموت شاعر فقير وكيف بعث موته الاطمئنان في نفوس الحاقدين والاسم والحسرة في نفوس الشعب وكانه يصف وفاة الشاعر (الرصافي) .

وفي مجموعته الخامسة (برج بابل) الصادرة عام ١٩٣٩ يهاجم المجتمع العراقي ونظام الحكم فيه الدكتاتورية هجوما عنيفا . يحدثنا في اقصوصته (قاعدة البرج) عن (قاسم) الذي بدد ثروته ليحصل على كرسي نيابة . (وعارف) الذي امتهن الصحافة لانها اخر ما يستطيع به الاحتيال لكسب العيش و (الشيخ حسن) الذي ادرك ان السهر في طلب العلم لا يفيد شيئا . ولكن بعد فوات الاوان. وتدور بين الثلاثة احاديث في السياسة والحياة . في مقهى اعتادوا الجلوس فيه يحيط بهم الجواسيس ينقلون اخبارهم الى الحكومة التي تخشى مثل هذه الاحاديث .

(وقد اجتذبت تلك الاحاديث التي تدور حول رجال الحكم جاسوسا ماهرا تشهد له الملفات السرية بانه لم يرجع من جولته وهو حالي الوفاض اي دون ان يكتشف مشاغبا او شيوعيا متآمرا واذا لم يجد ما يرضيه لفق حادثة من مخيلته واتهم بها من توقعه الصدفة السيئة في طريقه .

ذلك ليقدم زبائن جددا للسجون ولكي تزداد الحكومة اطمئنانا على سلامتها . وتطالعنا (انتقام) بعقارب الحسد تنهش قلب (حامد) لان صديقه (اسماعيل) اصدر كتابا يدعو الى اصلاح اللغة وتيسيرها . واعتمد ايوب على التحليل في تصوير شخصية حامد .

(حتى اذا ما قلب الصفحة الاخيرة منه باصابعه المرتجفة . احدث الورق حفيفا ، كان وقعه في نفسه كوقع فحيح ثعبان مهلك . وما كاد ينتهي من قراءة الكلمة الاخيرة حتى قذف بالكتاب الى نهاية الغرفة، قرب حذائه ، وانكمش على الديوان ، واغمض عينيه قليلا كمن يبعد شيئا مرعبا او يستريح من عمل متعب لقد آلم حامد ان ينتج اسماعيل وتذيع سيرته في الافاق . ان بلابل حامد لم يقر لها قرار حتى ينطلق الى مجلس (سيف الدين) استاذ اللغة الكبير حيث يجتمع ادباء البلد وعلماؤه - ويجر الحديث عن الكتاب جرا - فسمع من المثالب في شخص اسماعيل وكتابه ما اثلج صدره . فبارح ندى القوم وهو شاعر . ان ثقلا قد ازيح عن صدره) (٧) .

والذي افسد الاقصوصة كثرة العظات وضرب الامثال . (ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر) و(ولا يغتب بعضكم بعضا . ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه) . كما ان التحليل جاء سطحيا ومحدودا .

وفي (عاصفة وصداها) يصور نوازع نفس تضافرت عليها عوامل الفساد . فقد عمل (توما) في صفوف الحزب واخلص له وكانت جريدته لسان حال الحزب ، وعندما تسلم الحزب الوزارة ارسل اليه رئيس الوزراء ليعتذر له عن عدم امكان اعطائه كرسي الوزارة لانه مسيحي . حز الالم في نفسه وضعف ايمانه بالمبدأ . واخذ يتقلب بين المبادىء يساند الاقوى ، ويساعد افراد طائفته . ويتآمر مع المتآمرين على قلب نظام الحكم . وكان توما متدينا كثيرا ما يتلو اعتراضاته امام صورة المسيح ، ويحدث ان يسقط جدار ويصيب رأس ابنه . يعتقد ان ذلك عقاب رباني . وما ان يشفى ابنه حتى يعيد توما سيرته الاولى !

لقد وفق المؤلف في تصوير شخصية توما ، واجاد في تحليل الدوافع التي تضطر الانسان في الجو الخانق ان يغير نظرته للحياة. وجاء اسلوبه مؤثرا خاليا من الوعظ والارشاد . اما (زينة الحياة الدنيا) فهي حوار بين صديقين : مدرس وموظف في وزارة المالية. يعبران فيه عن برمهما بالحياة واحساسهما بسخفها ومللها وينتقدان السياسة العامة للحكومة . ويستأثر ايوب في مجموعته السادسة (الكادحون) الصادرة عام ١٩٣٩ بطبقة العمال والفلاحين وهو يختارهم جميعا من الريف او من سكان شواطىء النهر كصاحب المراكب الذي يعصى على اشد الاخطار ويقهرها ليموت اخر الامر اتفه ميتة (النوخذه)

(ربما كانت هذه هي المرة الاولى التي ركب بها (يفور) سفينة لم يسحبها . لقد رأيته في اليوم الثاني في تابوت مصنوع من سعف النخيل . ممدودا بجانب زوجته واحد اولاده . وقد تشبث بعضهم ببعض وعليهم اسمالهم البالية التي غسلتها الحياة فظهرت اكثر نصاعة وبياضا . وقد تكرم عليهم السدنة وعلى غيرهم من الغرقى الذين قذفت الامواج بجثثهم الى الشاطىء بالطواف حول ضريح (الامام زيد) ليتموا زيارتهم وهم محمولون على الاعواد .

لقد رأيت بعيني السدنة يتشاجرون اثناء اقتسام هؤلاء الزوار لسلبهم ما يحملون وقد يمسكون بالزائر لشدة جشعهم فيسحبونه سحبا الى مزاراتهم ويختطفونه اختطافا) (٨)

ونجد في (الثائر) ان (وحيدا) يعيش على صيد السمك . يهجم (بفالته) على جيش الانكليز ويفعل الافاعيل ثم يقتله ابن عمه

---

(٤) ذنون ايوب « وحي الفن » ص ٣٠

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠

(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٠

(٧) (برج بابل) .. ص ٢٧ .

(٨) ذنون ايوب (الكادحون) ص ٢٦ ، ص ٢٤ .

(برشاشتـه) وسبب ذلك ان القبيلة اعلنت عصيانهـا على الحكومـة لان شيخهـا لـم يفز بكرسي النيابة ، ويدافع وحيد عن شيخه بينمـا يدافع ابن عمه الجندي عـن الحكومة .

(وكان منظر المقاتلين غريبا حقا . قسم يدافع عـن شيخه وقسم يدافع عـن مليكه وحكومته وكلهم مـن قبيلة واحدة ولا اظـن انه قـد خطـر في بال احد من الجنـود او مـن الثوار ان سبب تلـك المجزرة كـان كرسيـا في مجلس النواب) .

وفي (عالم المعيدي) يطرق ايوب اسلوبا جديدا فيالكتابة متاثرا بكاتب غربي (انساه الشيطان اسمه) وتصور القصة عامـلا زراعيا اتاه (عزرائيل) بعد اكلـة دسمة من سمك متفسخ . اخذه الى الآخرةوسار به على الصراط ومثل امام الله لمحاكمته وفاز بالجنة بعد دفـــــاع مستميت :

(اجل ايهـا الاله لم اتعلم القراءة والكتابة والقرآن واين هـــو الوقت الذي اتعلم به كل هذا . واين الثمن الذي ادفعه لمن يعلمنيذلك اجل لقـد سرقت ولم افعل غير مـا يفعله كل اترابي من الاطفال . ولم يخبرنـا احد بأن هذا العمل سبة او معصية وانه يسمى سرقة محرمة لقـد كنـا نسميه شطارة ومهارة وكـان يدفعنـا اليه الحرمـان والجوع وهذه الصلاة التي لـم اقم بهـا من ترى كـان يعلمنيها (المؤمن) يقـرأ التعزيـة ساعـة واحدة لقاء مبلـغ مـن المال يعجز عـن تقديمه عشرة فلاحيـن اذا اجتمعـوا معـا وقرروا الصيام شهرا كاملا ، ايها الرب القدير انت تعلم كيف يعاملنـا الراكلـة وملاك الارض .. انهم يطلبـون منـا ان نعمل ليل نهار ولكنهم يجلدوننا بالسياط ويميتوننا في السجون لو طالبنـا بابسط حقوقنا . اننا نزرع الحنطة والرز ولكننا ناكل خبز الذرة الممزوج بالتراب والرمـاد فهل يعـد اخذنـا بضعـة حفنات مـن الحنطـة والرز جريمة او خطيئة ؟ لقـد قتلت الحمار لاني كنت اطلب منه ان يعمل ولكني في الحقيقـة كنت اساويه بنفسي وها انذا قدقتلت نفسي فيسبيـل العمل ..

كل ذلك بمشيئتك فاين عدلك ؟ لقـد خلقتني وقررت لي هـــذا المصير فانت الاول والاخير ولا اعلم ماذا جنيت حتى استحق هذا العذاب الابدي في الدنيـا والآخرة) (٩) وتثقلنا مجموعة (العقل في محنته) الصادرة عام ١٩٤٠ باسلوبهـا الرمزي الى عالم غريب لم يعودنا ذنـون ايوب اياه ومن اليسير ان ندرك السبب الذي من اجله آثر المؤلف هذا الاسلوب لانتقاد العهد القائم في تلـك الفترة من الحرب الاخيرة ،فهو يـرد اساطير وحكايات تدلل على عبث العيش في بلاد بعيدة ففي هذه الاقاصيص يخضع العمل دائمـا للتقاليـد السخيفـة والاحكام المسبقة الشائعـة ولكـن هناك دائمـا رجلا شاذا يصارع ويكافح غير انه ينتهي بالاخفاق لان مفهومه يختلف عـن مفاهيم الناس جميعـا وهكذا ينتصر الفساد اخر الامر . ومثال ذلك قصة (مصرع العقل) وتدور احداثها في الهند وكتبها الكاتب في اسلوب الحكاية . يسمع (الراجا) نصائـح الانكليز بتعيك (كالاصاحب)وزيراللثقافة والتعليم والصحافة وكالاصاحب مصاب بالصرع وبالشذوذ فيعمل بطريقتـه الخاصـة للقضاء علـــى كل عمل فكري ، وينهار المفكرون المتخاذلون وترتعـد فرائصهم ومن هنا تبدأ محنة العقل . وتشابه هذه القصة قصته (غريب في القطيع) وقد اختار بهـا الهنود الحمر اطارا . ومثل ذلك اقاصيص المجموعة الاخرى (رقص المقابر ، شيوعي في الملابو) و(مساومة) التي تدور احداثهـا بيـن ملـك يحاول شراء شاعـر ولكـن الشاعـر يفضل السجن على ان يكون بوقا للملـك الطاغيـة فهـو يخاطب مليكه قائـــلا (ما انت الا سجين الكرسي فقـد اخترت لنفسك اصغر السجون ضيقا لا يسـع سواك ولا يشاركك فيه من يستمع لبلواك (١٠) .

(٩) المصدر السابق ص ٨٢ – ٨٤ .
(١٠) العقل في محنته ص ٤٩ .

ويبين فيها فلسفته في الحياة وازدراءه للتقاليـد والعـــادات (السجين : اختي زنت يا سيدي فقتلتهـا لان تقاليد عشيرتنا تأمـــر بذلـك) .

الشاعر – انت ضحية بائسة كان على القانون ان يسجن العشيرة كلهـا ويطلـق سراحـك) (١١)

يقول ايوب في مقدمة مجموعته الثامنة (حميات) الصادرة عـــام ١٩٤١ :

(ان مثل من يتوهم ان الامراض الخلقيـة والنفسيـة اقل فتكـا بالبشر من الامراض الجسمية كمثل رجل اطرش اعمى وسط غرفـــة مسدودة النوافذ مغلقة الابواب وقد حالت جدرانها بينه وبين عالـم تكتسحه عواصف هوج وزوابع مدمرة . ليت شعري كيف يسوغ لـــه العقل والمنطق ان يحسب وافدات الملاريـا والكوليرا خطرا لا خطربعده وهو يـرى سيـول الدمـاء الجاريـة ويسمع بأذنيه هدير المدافع المهلكة ويشاهـد الالوف والملايين من بنـي البشر اصحاء اقوياء يدخلون ابواب الفناء زمرا كل ذلك بسبب نوبة جشع قد اصابت مجتمعا من المجتمعات او وافدة غرور انتابت عددا من الناس (١٢) .

وكان ايوب يريد ان يشعر القارىء بانه لـم ينحرف عن خطتـه التي سلكهـا من قبل . واقاصيص هذه المجموعـة ضعيفة لم يوفـق فيهـا الكاتب وكانهـا كتبت على عجـل .

ومجموعته القصصية التاسعة (الكارثة الشاملة) الصادرة عام١٩٤٤ هي اخر مجموعـة قصصيـة صدرت لايوب قبل انتهاء الحرب الثانية. وقد صور فيهـا مآسي الحرب وويلاتهـا . اهداهـا الى الابطال الميامين الذيـن يقدمـون ارواحهم بكرم وسخاء للقضاء على اخطر ما ابتكرتـه الرجعيـة من الشرور والاثام . الى المحاربين في مختلف الجبهات ضـد قوى الطغيـان (١٣) . يقول في (حمى الحرب) : (تنبأ علمـاء الاجتماع بالحروب العالميـة العامة نتيجـة دراسة الاوضاع الاقتصادية القلقـة المرتبطـة بنظم سياسية واجتماعية اشد قلقا فيلتحم بعضهم ببعض في صراع هائل جهنمي يضعفهم وينبه عبيدهم الى الانتفاض عليهم للتخلص منهم فيرفع العبيـد السلاح الذي اعطوه لذبح رفاقهم من العبيد فـي امم اخرى في وجه غاصبي حريتهم فتمحي الفوارق بين السيد والمسود وينتفي التناحر ليحل محله التعاون). (١٤) يصور لنـا في (بـــوق الحرب) المجاعـة التي حلت بالموصل في نهايـة الحرب العالمية الاولى وكيف كـان الموت يحصد الارواح . ورائحة الاجساد تخنق الجو

وفي (العبء العظيم) حوار بين (رجب) المؤمن بفلسفة معينـــة و(حامد) العامل المتذمر من ظروف عمله .

(اذن فالحرب وشكواك قضيتان تمثلان حجري عثرة في سبيـــل تكامل الحضارة فعلى المجتمع البشري ان يزيل هذيـن الحجرين فقـد تجمهر غـلاة المحتكرين والرجعيين في معسكر وتجمهر المعتدلون وطليعة التقدميين في معسكر اخر .. فانت ان شكوت من اضطهاد فاعلم انـك تشكـو مـن ذيول بقايـا النظام الذي شنت الحرب لتأييـده . واذا بقيت فانما تتعب في سبيلقضيتك الخاصة وقضية جميعالشعوب)(١٥)

يهب الكاتب شخوصه بعض لمحات قشرتها الخارجية دون ان يتعمق فيهـا او يحلل عواطفهـا او نفسيتها ، ولم تكـن للشخصية خصائص فرديـة تميزها عن غيرها ، بل هي مواقف عامة وانماط بشرية عديـدة لافراد الشعب . ولم يصور قلق الشخصية وتناقضاتها وصراعها العنيف، وانما يعرضهـا لمواقف متضاربة ولجملة مـن المفارقات المتكاملـة ،يرجح

(١١) المصدر السابق ص ٥١ .
(١٢) ذنون ايوب (حميات) ص ١ .
(١٣)ذنون ايوب (الكارثة الشاملة) ص ١ .
(١٤) المصدر السابق .. ص ١ .
(١٥) المصدر السابق .

فيها تغليب احد المواقف التي تقفها الشخصية . او يجعلها تنهزم من الحياة عموما . وتبدو هذه الخاصة التي تتسم بطابع المأساة في شخصياته النسائية . وشخوص ايوب دمى خلقها الكاتب لتحقيق هدف معين او فكرة معينة ، نظرتهم الى الحياة خاصة بهم هي النظرة التي يرى فيها الكاتب الحياة . بعضهم يميل الى العزلة والانزواء ،واخرون يعيشون في بؤرة الحياة ، يكافحون من اجل وجودهم ، وهممحبوبون لانهم صريحون لا يخافون في الحق لومة لائم . والقسم الاخر منعالم ايوب ينحصر في فريق رجال السياسة ، يحصي عليهم تصرفاتهم ويسجل مثالبهم ، ويتعمق احيانا في سبر نفوسهم لكشف عنصر الشر فيهم والتي تطبع اعمالهم بطابع الانانية والخداع واغفال المصلحة العامة التيفرض عليهم ان يسهروا عليها .

وينجح الكاتب في اثارة القارىء وملء صدره حقدا عليهم . كما ينجح في اثارة الرثاء . المشوب بالازدراء لشخوص اخرى تجري في اعقاب اولئك الساسة تنكر ما اصابت من مفاهيم بعد الدرس والتحصيل العالي وتتجاهل المثل الاخلاقية العليا . بينما يخلع على الابطال الذين يحبهم صفات تقربهم من القلوب وتحيطهم بهالة من الاعجاب والاحترام وان بدوا احيانا غريبي الاطوار لا يستطيعون التلاؤم مع الحياة (١٦) .

يستمد ايوب واقعيتهفي كتابة اقاصيصهمن تجاربه الشخصيةوعن الاحداث التي يراها . ان الخيال لا يلعب عنده الا دورا محدودا ويدين بجمال قصصه الى عينه اللاقطة لا الى وثبة خياله .

يؤمن ايوب بالادب الهادف وبان القصة لا تكتب ولا تقرأ لذاتهاولكن لاظهار عيوب المجتمع ونقده . فلا بد ان تكون ملتصقة به ، والالوان المحلية التي تظهر في قصصه انما هي الجسر الذي يضعه بينالواقع الذي يكره والمستقبل الذي يرجو . وهو متفائل ويعتقد فيقرارته ان النضال لا بد ان يثمر وان الانسانية لا بد ان تنتصر . واثاره تنقد السياسة العامة للعراق وتستهجن التقاليد البالية التي تجر المجتمع الى الوراء . ونستطيع القول ان ذنون ايوب رائد الواقعية الجديدة في العراق ، التي تطورت بعد الحرب الثانية واكتسحت الاتجاهات الاخرى في القصة العراقية القصيرة ، ونلمس ذلك فيعدد غير قليل من اقاصيصه التي نشرها بعد الحرب (١٧) اذ يتلمس شخصياته من الطبقات التي تقف وجها لوجه امام الحياة في كفاحها اليومي المرير في سبيل البقاء ، وتتميز بطابع محلي يتمثل في عرض الصور الواقعية الشعبية فيما يكسب بعضها صفة انسانية عميقة الدلالة لامتيازها بالصدق والاخلاص للواقع وعدم الجنوح الى التجريد وخلق النماذج المتخيلة . وربطه بين الادب والوطن وابراز الخصائص الجوهرية لهذا الوطن وللناس الذين يعيشون فيه . واقاصيصه ترتبط بالارض العراقية ارتباطا وثيقا وتعالج الواقع وتتحدث عن العراقيين ، في حدود العراق وفي العصر الحاضر ، وتؤمن اقاصيصه بان الانسان كائن كريم ينزع دائما الى حياة حرة سعيدة يعمل من اجلها وله القدرة على باوغ ما يريد رغم العقبات التي يضعها المستغلون والحكام من ورائهم لعرقلة مسيرة الانسان نحو هدفه ، عن طريق قوانين تسنها الحكومة لخدمة الطبقة المستغلة المرتبطة بالاستعمار كل الارتباط (١٨) .

لغة الكاتب معبرة بصورة عامة وان كانت لا ترتفع الا قليلا عن الاسلوب الصحفي البسيط . ولا يخلو اسلوبه من اخطاء لغوية ونحوية واملائية ، ومرد ذلك عن سرعته في النشر .

وقد يستخدم ايوب عبارات كلاسية يقتبسها من قراءاته المتعددة وحافظته من الشعر العربي القديم او النثر ، مثل (دقوا بينهم عطر منشم) و (اجمعت القبيلة امرها عشاء فلما اصبحوا اصبحت لهم فوضاء) . ويستخدم احيانا كلمات غريبة عن افهام القارىء العادي مثل : سهوة واقعاء والوصيد والعثير .

وقد تغير اسلوب ايوب وازداد اشراقا وجمالا في مجاميعه الاخيرة : قلوب ظماى ، وصور شتى ، وقصص من فيينا . كما تشيع السخرية في اسلوبه ، يستعين بها للنيل ممن يضعه هدفا لنقده. وقد يسف احيانا في نقده بذكر نعوت مختلفة (هو الدكتور العظيم) (هذا الشيخ الخرف) .

وقد يعمد الى السجع ساخرا متندرا كقوله : (والسيد افضل موظف في ديوان ، له خادم وله اعوان ، وله عقل يتسم بالرجحان.. حتى اصبح يشار له بالبنان . من ذوي الكلمة عند الاقران (١٩) . ولكن اشد السخرية واكثرها ايلاما تلك الصور الفارقة التي يوفق الكاتب في رسمها احيانا كقوله (وسهر الليالي مكبا على الكتب الصفراء حتى شحب وجهه وكل بصره وضعفت بنيته فاصبح يشبه بقامته النحيفة ووجهه الصغير وعمامته البيضاء وملابسه العصرية تحت الجبة السوداء فلما من الرصاص في رأسه ممحاة) (٢٠) . وفي هذه الروح الساخرة تكمن المأساة ، فسخريته نابعة من الالم الذي يعيشه الشعب العراقي مقيدا بقيود اجتماعية وسياسية ثقيلة (٢١) .

واستعمل الكاتب في مجموعته « صور شتى » الامثلة العلمية وكانه مدرس في فصل ، ولا بد ان لاتجاهه تاثيرا كبيرا في ذلك ، كقوله (عناصر الحياة في الحجيرة ثمانية فثية نشيطة قوية بعضها موجب وبعضها سالب) و (في زاوية من شريان صغير يتفرع من شريان المدينة الاكبر) (٢٢) .

وقد كان ذنون ايوب من الكتاب الذين وضعوا الرواية الواقعية في العراق على الصراط الفني الصحيح ، وقد اعطاها شكلها الذي يجب ان تتخذه كنوع ادبي ، وكان قد تمثل بعمق روح التجربة . فاستطاع بتمكنه من عناصر الخلق الفني ان يفرغ التجربة فيالقالب الفني ، فجاءت الرواية لديه متحررة من جميع ماضيها القديم في العراق .

وقد اصدر ايوب ست مجموعات قصصية قبل ان يصدر روايته الاولى « الدكتور ابراهيم » عام ١٩٣٩ ، ثم روايته الثانية « اليد والارض والماء » عام ١٩٤٨ ، فروايته الثالثة « الرسائل المنسية » عام ١٩٥٧ ، بالاضافة الى اثنتي عشرة مجموعة قصصية . وقصص ايوب تعكس ذلك القلق الفني الذي انتشى منه المثقفون بين سنتي ١٩٣٠ - ١٩٤٠ ، وهو لا يقدم فلسفة معينة في قصصه ولكنه يشعر بان الحقيقة لا توجد الا في الواقعية وان الواقعية هي التعبير عن الديمقراطية . وكان يحاول دوما ان يعطي الحدث القصصي قوامه الارضي الانساني ، ومن هذا الموقف ينبع مبدأ الالتزام في ادبه ، وبه يدخل ميدان المعركة وميدان النضال الاجتماعي والانساني ، فيجعل لا للكتابة نفسها وانما يجعل من الكتابة وسيلة لغاية اخرى صريحة ينحاز تجاهها في هذا العالم الذي يقسمه الى طبقتين (ايديولوجيتين) متنافستين (الايديولوجية الرأسمالية والايديولوجية البروليتارية) وهو ينحاز الى جانب الاكثرية مقابل الاقلية ، فيدلف اكواخ الناعسين وينطلق الى الحقول حيث العاملون من غير ملل . ولناخذ على سبيل المثال ما يقوله (ماجد) احد ابطال روايته « اليد والارض والماء » : (ان الربح قد اصبح في نظري امرا ثانيا . لقد وجدت الآن معنى من

---

(١٦) انظر : فكرالله ، ثورة العبيد ، فتاة الجسر ، صيد البشر، الرمس للعالم .

(١٧) الخصم والحكم ، الكابوس

(١٨) انظر عبد القادر حسن امين (القصص) .

(١٩) عظمة فارغة ، ص ٢٩

(٢٠) برج بابل ، ص ١٦

(٢١) انظر عبد القادر حسن امين (القصص)

(٢٢) صور شتى ، ص ٣٥

معاني السعادة التي ينشدها الانسان في كثير من الاحيان فلا يجدها، لقد وجدتها في بريق عيون هؤلاء الفلاحين . اننا قد انشانا عملا مفيدا لمئات من الناس ووزعنا قوتنا للالوف وآحيينا ارضا ميتة)(٢٣) .

كل ذلك ليكون الادب سلاحا يذود به عن حق الضعفاء ويستمد منه ايمانا بانسانيته وعزيمة في كفاحه الدائب في سبيل حياة حرة لا يستعبد فيها القوي الضعيف ولا ياكل الانسان لحم اخيه الانسان. لان الواقعية حين ترى في الادب فنا له رسالته الاجتماعية ترى له دورا خطيرا في تنظيم المجتمع ، يؤثر في تطوره الانساني ، وذلك يعني ان على الكتاب مسؤولية اجتماعية وطنية انسانية تفترض الاخلاق والصدق في العمل الادبي (فاذا كانت الدولة لا تحمي رعاياها فعلى الرعايا ان يحموا انفسهم بانفسهم) (٢٤) . هذا ما يردده ماجد بطل « اليد والارض والماء » .

وشعر انه سيكون على جيل القصاصين ان يبدأوا من جديد بنظرة متحررة الى العالم حولهم . وتستمد هذه الواقعية عناصرها من انه يصدر فيها عن تجاربه الشخصية وعن الصور والاحداث التي يراها . فسيرة « الدكتور ابراهيم » سيرة شخصية معروفة في العراق في تلك الفترة حيث يقول الدكتور ابراهيم للمؤلف الذي يروي القصة : (وبرهنت للناس على ان الدكتور ابراهيم هو الدكتور الجمالي وليس انا (٢٥) . ويقول في مقدمة « اليد والارض والماء » : (ان شككت في صحة هذه الرواية .. اقول عليك باضبارات الدولة واوراقها ، وستجد اذا ما سمحت لك الدولة بالكشف في عوراتها ان الحقيقة اغرب من الخيال (٢٦) . ويعترف في بداية « الرسائل المنسية » انه سرق رسائل صديق (عارف) : (بل صممت على ان اسرقها ايضا فلا ابذل من الجهد اكثر من ان ارتبها دون زيادة او نقصان (٢٧) . وكان الاجدر بالكاتب الا يضم في روايته صورا منقولة عن المجتمع العراقي بل صورا انسانية تعين القارىء على فهم هذه الحقائق التي تشتمل عليها هذه الروايات ، ولكنها امتازت بالصدق وفقدت كثيرا من الحياة والتاثير وعلى الاخص روايته الاولى « الدكتور ابراهيم » ، فقد رأى الوصوليين المهرة يشقون طريقهم الى السلطات بواسطة الخداع والمكر والمال وذلك بسحق من هم اقل منهم مهارة في الخداع والقضاء عليهم . لقد رأى طبقات جديدة محدثة النعمة تنشأ على اساس الاستحواذ على الاملاك ، وبالاختصار لقد رأى جميع العوامل الدنيئة والتي تعافها النفس صادرة عن هذا المحك السحري الجديد للنجاح اعني النقود ومن هذا الواقع استمد المؤلف شخصية الدكتور ابراهيم .

يؤمن ايوب بالادب الهادف وبان الرواية لا تكتب ولا تقرأ لذاتها ، ولكن لاصلاح المجتمع ـ كما سبق ان بينا ـ ولذلك يرى ضرورة اتصالها به . وهذه الالوان المحلية التي تظهر في روايته هي الجسر الذي نصفه بين الواقع الذي يكون والمستقبل الاشتراكي الذي يرجو .

ويقول في مقدمة روايته « اليد والارض والماء » : « منذ بضع سنين يوم كانت الحرية الفكرية مغلولة بالف قيد (....) وجدت نفسي في تلك الفترة في حالة حرج شديد قريب من اليأس ، فقد ضقت بقيود السياسة البلهاء وقيود المجتمع البليد المتزمت وقيود المتعصبين في السياسة ، ذلك التعصب الذي دونه التعصب الديني الاعمى ، فوطنت نفسي على الهرب من هذا البلد والتشرد في ارجاء العالم) (٢٨) .

ويعتقد ايوب في قرارته ان النضال لا بد ان يثمر وان الانسانية لا بد أن تنتصر ، وهو ما يفتأ يردد على لسان ابطاله في رواياته ما يردده (عارف) : (ألست جاهلة مبلغ تمردي على المجتمع الجاهل وقوانينه الوضعية البلهاء ، على عرفه الجامد البليد ، على فضائله التي يقدسها والتي لا ارى فيها الا ارذل الرذائل ، فلو اردت ان يهجي احد الناس اقذع الهجاء فما عليك الا ان تصفه بانه رجل يحترمه الناس لانه فاضل في نظرهم ، يراعي العرف والتقاليد ولا يشذ عنها قيد شعرة) (٢٩) . وما تقوله سنية : (ولو تقدمت الزراعة العصرية لارتقى الفلاح حتما ودخل دورا جديدا لا اثر فيه لتلكم العادات والتقاليد البالية) (٣٠) . وقد دأب على تقديمه للجماهير البدائية المتزاحمة ودفعها الى مكافحة الفردية . والفردية عنده معناها الانفصال من الجماعات المتراصة والعزلة والتنازع لا بين الافراد والجماعة فحسب بل بين الافراد انفسهم ، ويصبو كل منهم الى القوة والى الامتلاك والى اثبات وجوده بالوسائل العدوانية كما فعل كل من (الدكتور ابراهيم) ووالده الشيخ اسماعيل في رواية (الدكتور ابراهيم) والاقطاعيين ورؤساء البيئات الادارية في « اليد والارض والماء » و (عارف) في « الرسائل المنسية » .

ونستطيع القول ان ايوب رائد الواقعية الجديدة في العراق التي تطورت بعد الحرب الثانية واكتسحت الاتجاهات الاخرى في القصة العراقية ، وفي الاخص القصة القصيرة ، لانه يتلمس شخصياته التي تقف وجها لوجه امام الحياة في كفاحها اليومي المرير في سبيل البقاء وتتميز بطابع محلي يتمثل في عرض الصور الواقعية الشعبية مما يكسب بعضها صفة انسانية عميقة الدلالة لامتيازها بالصدق والاخلاص للواقع وربطه بين الادب والوطن وابراز الخصائص الجوهرية لهذا الوطن والناس الذين يعيشون فيه . وترتبط قصصه بالارض العراقية ارتباطا وثيقا وتعالج الواقع وتتحدث عن العراقيين البسطاء في حدود العراق وفي العصر الحاضر ، وتؤمن قصصه بان الانسان كائن كريم ينزع دائما الى حياة حرة سعيدة يعمل من اجلها وله القدرة على بلوغ ما يريد رغم العقبات التي يضعها المستغلون والحكام من وراتهم لعرقلة مسيرة الانسان نحو هدفه عن طريق قوانين تسنها الحكومة لخدمة الطبقة المستغلة المرتبطة بالاستعمار كل الارتباط .

واذا قلنا بان ايوب بدأ يكتب بروح انسانية فلا نقصد بهذا العمل الانساني الذي يرفع الادب الى مستوى كبير وانما نقصد التعاطف الاجتماعي او الديمقراطية الاجتماعية المتغلغلة في نفسه منذ نشأته ، فانه يشعر باعنف الحب نحو الطبقة الدنيا في الشعب العراقي ، يعجب ببساطتها الصافية وطويتها الساذجة الكريمة ويرثي لجهلها وانحطاط عيشها الذي تحياه ويشعر في ذاته وخز الالم الذي يضمه صمتها الابدي .

وهو يعتمد على التحليل والتعليل يمزجهما بالفن القصصي مع انفصال اسلوب الدراسة العلمي والادبي احدهما عن الاخر . ودرست رواياته موضوعات خلقية حساسة دراسة حرة ، وقد انتفع بدراسة علم النفس وعلم الاجتماع والسياسة وما يتصل بالانسان ومشاكله الاجتماعية .

وتكشف شخصية عارف (الرسائل المنسية) رغم تعقدها وقلقها وتهربها خلال اضطرابها وتوترها عن مسارها النفسي بصورة واضحة . فعارف مصاب بالنرجسية ، فهو يستسيغ في رسالته الاولى الى حبيبته منطق حب عدة نساء في زمن واحد ويعترف

---

(٢٣) ذنون ايوب « اليد والارض والماء » ص ٤٥

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٥٠

(٢٥) ذنون ايوب (الدكتور ابراهيم) ص ٢٥ « اليد والارض والماء » ، الاهداء .

(٢٦ و ٢٧) ايوب ، الرسائل ، ص ٩

(٢٨) ايوب « الرسائل المنسية » ، ص ٥٥

(٢٩ و ٣٠) « اليد والارض والماء » ـ الاهداء ، ص ١٠٦

بذلك في رسالته الثالثة ايضا . ويقول لها في رسالته الخامسة : (اني لا احبك ولا اشعر بميل اليك بل ولا أعجب بك) ولكنه يقول بعد ذلك (اني احبها ، اجل ولكن على طريقتي الخاصة لا عـــلى طريقتها هي) .

والعلة التي تكمن وراء هذا التناقض احساسه (بالنرجسية) وطريقته في الحب تعني أن تحبه كما يحب هو ذاته وأن تفنى فيه وان تمتلىء اعجابا بعظمته وقدرته كما يمتلىء هو بها وان تفتـت وجودها في وجوده ، ثم يظهر جوه النرجسي الغريزي بقوله : (اني لا اشعر احيانا برغبة شديدة في قسم بعض اجزاء وجهك بل فـــي التهام كل جسمك الصغير وأنمثله حتى يصبح جزءا من كياني) . والرواية لمحات نفسية في مجموعة من الرسائل لا يربطها ســـوى وحدة شخصية عارف التي تفتح ابعادها بسلسلة متصلة مـــن الاعترافات .

وقد افاد ايوب من المنهج العلمي في التعرف على الواقـــع تعرفا صحيحا . وانعكست ازمته كمنتم على استخدامه لهذا المنهج وقد افاد منه في المستوى الفكري اضعاف افادته منه في المســتـــوى الفني ، فلم يكن الترابط فيما بين الاحداث والظواهر والافـــكار والشخصيات بل كان الانضمام واضحا بين الشكل والمضمـــون، فقد تحدث ايوب باسلوب تقريري سردي في روايته « الدكتـــور ابراهيم » وافاض في عرض صور فاسدة لبعض الموظفين الكبـــار الذين صغرت نفوسهم وانحط خلقهم وغدوا لا يؤمنون بمثل ســـام ولا بفضيلة ، واعتقدوا ان تسخير كل ما في العالم واجب في سبيل الوصول الى ما يريدون من اطماع . وقـد رضع ابراهيـــم الانانيـــة والاستغلال مع حليب امه ، فقد وجد اباه يحسن النفاق والتظـاهر بالتدين ليخدع عقول السذج ، وقد جمع من ذلك ثروة طائلة وهيأ له نفوذ عريض : (وقد احسن المؤلف حين جعل اباه « فتاح فال » من ايران ، فقد ارتبط الفرس في ذهن العراقيين بالمكر والخديعـــة ، وهي صورة بطل الرواية التي عرضها الكاتب) (٣١) .

وكان ابراهيم في المدرسة مثال الطالب الذي لا يهمه شـــيء في الدنيا قدر ما نهمه مصلحته ونجاحه . وقد استغل نفوذ ابيـــه في الذهاب الى انكلترا ، وهناك تعرف بفتاة انكليزية ابنة قسيس كبير ، له نفوذ واسع في دائرة الدولة والاستخبارات فتزوجهـــا . وحينما عاد الى العراق سلك كل الطرق غير الشريفة للحصـــول على الجاه والثروة حتى انكشفت اساليبه امام الناس جميعـــا . وعندما فصلته الحكومة من دوائرها بعد ان قام باعمال تعمد فيهـــا مخالفة الانظمة واللوائح من اجل الظفر (بالاكرامية) التي ينص عليها القانون في تعويض المفصولين من وظائفهم ، فشد الرحال الـــى اميركا ليقضي بقية حياته هناك .

وهذه الصورة مثال سيىء لضرب من موظفي الدولة الكبـــار يسخرون المصالح العامة في سبيل مصالحهم الخاصة .

وهو يبدأ روايته « الدكتور ابراهيم » فيما سماه بالتمهيـــد على شكل تعليقات لا تدخل في صلب الرواية اطلاقا تحدث فيه عما جرى له من شغب حصل من جرائه علـى عقوبتيـن هما : الفصـل والتوبيخ وقد بدا غير معقول حديث الزوجة (جني) وهي تنقـذ زوجهـا وتنقذ قومه امـام المؤلف وكانهـا غير راضية عن تصرفاته في حين أننا لم نر في سياق الرواية كلها شيئا يدل على ذلك .

وقد اورد آراء غير ناضجـة تتمثل في تلـك المحاورة بينه وبيـن الدكتور ابراهيم عن اسلوبهما في الحياة اشترك فيهـــا الانكليزي الضيف وذهب كل منهـا يبرهـن ان قومـه يقدسـون الحرية باسلوب

(٣١) جميل سعيد : التيارات الادبية الحـديثة (فـــي العراق) ص ٦

لا يعلو على اسلوب طلبة المدارس وكانت صراحة الدكتور ابراهيـــم في رسائله للمؤلف صراحة في غير المعقول ان تصدر عن شخص له مثل اخلاقه (٣٢) .

وقد حفلت كثير من الفصول بسرد عام لاوضاع السياسة والمجتمع تضاءل فيها نصيب الدكتور ابراهيم وبرزت شخصيـة القـاص باهدافهـا وارائها تنص على المسؤولين ومفاهيمهم المغلوطـة بمـا يتعلق بالشيوعية وغيرها من المبادىء التي جعلت ذريعـة لكم الافواه واسكات الاحرار . وقد وقف المؤلف يحض رجال الحكم وينصحهم بان يلزموا جانب الصواب . وكذلك في حديثه عن النزعات المذهبية والسياسية وفي حديثه عن القوانين وتلاعب الحكام بهـا ووضعهم القوانيـن لا من اجل تنظيم شؤون الرعية بل من اجل الحاق الضرر باعدائهم مثـل تشريع (قانون الذيل) الذي تم بواسطته فصل عدد من الموظفيـن غير المرغوب فيهم وانذي اسهب المؤلف في الحديث عنه ومن حديثه عن الصحافة المأجورة وعن الطريق المغلوطة في اختيار طلاب البعثات الى الخارج . وفي الحديث عن رجال الدين وشعوذتهم .

ويرمي ايوب الى غاية ما برح يميط اللثام عنها في كل مقدمـة وفي كل اهداء شان المربي الحريص على مستقبل طلابه وتابعيـــه يريد لهم النور يكافحـون من اجله ويريد ان يعشقـوا الحريـة ويسعوا اليها ويريد ابطالا مسلحين بالعقل والمنطق والجرأة في حربهم على الباطل اما روايته الثانية (اليد والارض والماء) فهي اكثر افنـاعـــا واشراقا وقوة في البناء (٣٣) .

يتمائل سليم للشفاء من جروحه التي يصاب بها على اثر نزاع قبلي من اجل قطعة صغيرة من الارض بفضل عناية الدكتور (حسام) فيدعوه وخطيبته هيفاء وصديقها المحامي (ماجد) الـــى مضارب العشيرة فيلبون الدعوة ويكرمون اكراما كبيرا . ويعرض احدهم على الضيوف فكرة المشاركة في عمل زراعي فتلاقي الفكـــرة ترحيبـــا ويستأجرون ارضا اميرية في منطقة (النهروان) لتحقيق الفكرة . وتتضافر الجهود على شراء الالات والبذور واصلاح الارض واعدادها للزراعة ويقام احتفال كبير بهذه المناسبة ويقدم الشركـاء القـروض للفلاحين لشراء القوت حتى ينضج الزرع وتدخل (سنية) في هـذا المشروع بما تملك من مال اثر لقائها لماجد في دار الدكتـور حسـام واعجابها . ويلاقي الشركاء صعوبات جمة في تسيير المشروع وتتجلى المشاكل في فساد رجال الادارة وانتشار الرشوة والآفات الزراعيـــة والعواصف الرطبة وجشع الملاك ومحاولتهـم السيطرة علـــى الارض بمساعدة رجال الادارة .

وامام هذه المشاكل المتتالية على اسقاط المشروع يفشل المشروع ويخسر ماجد كل ثروته ولكنـه يعوض خسارته بزواجـه من سنية التي احبها ووجد فيها المرأة المثلى .

وتشترك سنية في المظاهرات الشعبية التي تكتسح العراق ضد معاهدة (بورتسماوت) وينقذها ماجد من بطش رجال الامـن ولكنـه لا يتمكن من انقاذ (سليم) الذي يؤخذ الى المستشفى لمعالجة جرحـه البليغ ويشرف عليه اثنـان مـن اصدقائه حسام وهيفاء حتـى يتمـاثل للشفاء .

وهذا الصراع بين الفلاحين والاقطاعيين على تلك الارض يحدث دائما لانه وسيلتهم الاولى والوحيدة للانتاج وباستطاعة اي مؤرخ ان يقلب اوراق الصحف العراقية ليجد مثل هذا الصراع ولكن الجديـد

(٣٢) عبد القادر حسن امين (القصص) صفحة ١٧٩ .

(٣٣) يقول عنها سهيل ادريس (واما موضوع رواية ايـوب الثانية اليد والارض والماء فهي اجمـل موضوعـات الادب الروائـــي الحديث ومن اكثرهـا اهميـة في هذا العهد مـن تاريخ البلاد العربية) القصـة العراقيـة الحديثة « الآداب » ، العدد ـ ٤ ـ ١٩٥٣ .

في الرواية استخدام ايوب الناجح للعناصر النفسية التي عملت على تحريك المأساة ثم اظهار ايجابية الشعب الناتجة عن الوعي الجديد . وبفضل استخدام المؤلف لهذه العناصر النفسية على اساس الخيال الواقعي السليم استطاع ان يعطي روايته قيمة انسانية خالدة ولم يبعد حين قال في مقدمتها : « رؤيا بناها الخيال من لبنات الواقع وملاطه وزخرفها الفن بالوان المحيط واصباغه فهي خيال محض ان اردت واقعا محضا وهي حقائق صادقة ان اردت حقائق عامة غير مربوطة بقيود او حدود » .

واستطاع المؤلف ان يعطيها قيمة انسانية تاتت من ان الناس قد تتحكم فيها الاوهام اكثر مما تتحقق فيها الحقائق كما عند فلاحي المنطقة التي زرعها ماجد فهم يعملون ليل نهار لتحقيق الانتصار على الاقطاعيين الذين امتصوا دماءهم (وطلب ماجد من سليم ان يريح الفلاحين فضحك سليم وقال اطلب انت ذلك منهم اذا استطعت وسترى كيف يجيبونك . واستمر العمل طيلة ذلك اليوم تحت اشعة القمر ولما استيقظ في صباح اليوم التالي وجد ان الخيل قد ابتعدت في الافق حتى كادت تغيب فيه وما كان العمل يتوقف لملء اكياس البذور او لاراحة الدواب في فترات قصيرة (٣٤) .

وكذلك في صراع الشعب كله ضد الحكومة التي قيدته بمعاهدة مع الانجليز تستغله سنوات عديدة وتربطه بعجلة الاستعمار حتى رخص دم هذا الشعب المسكين المستقل .

وقد اعطانا المؤلف قيمة درامية تتاتى من تلك المفاجآت المحكمة التي استطاع بخيال موفق ان ينعت بها الحركة والتشويق عندما كشف لنا سوء الفهم الذي تسرب للفلاحين بعد فشل المشروع والانقلاب الذي طرأ على شخصية (سليم) بعد ان لمس خيانة عشيرته لاصدقائه وشركائه (ماجد وزمرته) والتغيير في مفهوم ايوب لا يقترن في اذهاننا بالصور الجميلة المتفائلة فان نهايات السقوط والانهيار تكسب لونها الاسود والحصيلة الختامية التي تفوز بها ان جميع الطرق مسدودة امام الوسائل الفردية للتمرد . ولم يعد هناك سوى الثورة الشاملة . هذا ما اكدته الرواية . ان موضوع ايوب في روايته كان على الدوام التعبير عن امل الانسان في ان تتخطى ارادته كل العقبات وان ينتصر . ولكنه عرض هذه الارادة بصورة مختلفة وجميعها منتزعة من البيئة العراقية فهو لا يكتب عن الماضي ولا يهتم لانه متعلق بالواقع بقوة . وتوزعت روايات ايوب بين قضية الاقطاع الديني والاقطاع الزمني وقضية المرأة التي نادى بها كما نادى بالحرية الكاملة للانسان ، وتمرد فيها على جملة التقاليد والشرائع والمواصفات الاجتماعية . وقد تطور فن الكاتب بعد الحرب العالمية الثانية غير ان هذا التطور تم ببطء في حدود فن الكاتب ولكنه اذا قيس بالتطور العام الذي سار في شكل الرواية العراقية لا يعد تطورا فقد ازدادت الحبكة احكاما وبدت الوحدة العضوية بين بداية الرواية ونهايتها اشد تماسكا .

هذا التطور نحو الاحسن كان يتم في فن ايوب ولكن الرواية العراقية لم تقف عند الشكل الكلاسيكي لها او الاصولي الذي آثر ايوب اتباعه وانما تطور تطورا اوسع واستخدم كتاب الرواية تقنيات جديدة واشكالا اكثر تنوعا عند (٣٥) عند فؤاد التكرلي وانيس زكي حسن وغائب طعمة فرسان ويقول ايوب : (في يقيني ان اعظم مهمة يجب على الادباء والقصيصين منهم على الاخص ان يضطلعوا بها هي اعطاء صور صادقة لما يقع تحت ابصارهم من حوادث عجيبة وشخصيات وانظمة وقوانين حكومية وشعبية ويدخل ضمن ذلك تلك القوانين غير المكتوبة التي يقع تحت تاثيرها المجتمع تلك الانظمة المتعارضة والتقاليد المرعية التي تسرب احترامها في دمه والتي يتعصب بها فيعمى عما فيها من حسن وقبح وتزداد هذه الصور قيمة كلما اختلطت بشيء من التحليل يجمع بين نواحيها المتباعدة ومظاهرها المرتبكة فيفسر ما غمض من اسبابها وعللها (٣٦) .

وقد اخذ الكاتب نفسه في رواياته بما قال الا انه كان يمعن كثيرا في التحليل والوعظ امعانا يجعل القارىء يسرع في تجاوز الصفحات والسطور احيانا هربا من ذلك التحليل والوعظ وهو من اكبر ما يؤخذ على الكاتب من عيوب لانه ينقل القارىء من قراءة رواية الى قراءة كتاب اجتماعي كما شحنت رواياته هنا وهناك بتدخلاته واطلالات رأسه ليبين رأيا يسوق دليلا او يرضي نفسه المتمردة ضد التقاليد البالية او ليوحي لنا بما يجب ان نؤمن به (الحرية ، الحرية تلك الكلمة المقدسة التي يحاربون من اجل تصفيتها وتجريدها من سوء الاغراض والمقاصد الفاسدة ليحصلوا عليها باكمل شكل وابهى صورة . بهذه الصورة سيتبين الخبيث من الطيب والحسن من الرديء والمخلص من الخائن . اني ارى يوما سيأتي على هذه البلاد تطلق فيها الاقلام من عقالها فتجول في كل جهة وفي مختلف المقاصد . ولو احترمت الحرية في هذه البلاد لما قدر لتلك الصحف الهزيلة المتذبذبة الخبيثة ان تبقى كالحشرات تعبث في خرائب قصر شامخ هدمته العاصفة ولم تبق على ساكنيه . .») ومع ان تدخله كان يجعله احيانا وسيطا مسليا وباعثا على التشويق والحماس لما حوى من تمرد وانانية فان تقريراته العديدة وتدخلاته المستمرة تعوق سير الحادثة وتقطع خيوط الرواية وتشكل فيها نقيصة فنية (٣٧) .

وكتابات ايوب تستهدف الفكرة السياسية والاجتماعية وقد حصر امانيه في مستقبل افضل للطبقات العاملة ، وللشعب العراقي قبل كل شيء . ان اهداف ايوب سهلة يسيرة . كان يقص قصة ، كان يسجل حقيقة ، كان يكشف لنا عن عيب او نقص او كان في معظم الاحيان يؤدي هذه الاغراض الثلاثة في وقت معا . وقلما كان ايوب قصيصا بكل ما تحمل هذه العبارات من معنى . ذلك لان القصيص يضع نصب عينه ان يعرض امام انظارنا رجالا ونساء ويجري وراء البحث عن عاطفة او اساس من اسس الفهم . ومن ناحية اخرى نرى ان الهجاء يتتبع سقطة من سقطات الشخصية او زلة من زلاتها ثم يحاول ان يتاثر بها وكانت الشخصيات التي يصورها شديدة الوقع والاثر عندما تكون انماطا تميل اسباب فشلها وسقوطها والكاتب لا يقوم بعملية اختيار اذ يمكن محو بعض الفصول وتظل الرواية كما هي دون ان يؤثر فيها هذا الحذف شيئا مثال ذلك الفصل الرابع الذي جعل عنوانه (عاهره) والقسم الذي اطلق عليه اسم (تمهيد) والذي يتحدث فيه المؤلف عن نفسه وعن نقله من بغداد ويشمل خمسا واربعين صفحة في رواية (الدكتور ابراهيم) بالاضافة الى افاضة المؤلف في التحليل والتفسير حتى درجة الاملال .

---

(٣٤) ايوب (اليد والارض والماء) صفحة ٦٠ .

(٣٥) انظر رسالتنا في الماجستير .

(٣٦) ايوب (رسل الثقافة) صفحة ٢ .

(٣٧) نيللي كورمو (فيزيولوجية القصة) الاداب العدد ـ ١ ـ ١٩٥٤ وهذه الخصائص تظهر في الرواية الاجتماعية التي تقدم فيها الدعوات الانسانية الى البطولة والثورة او اي شكل من اشكال العمل الجماعي . ولعل الادب الذي يبتعد اليوم عن الطريق الذي تشقه امام الجميع هذه الضرورة التاريخية التي تتلخص في تغيير مجتمع ما ـ لعل مثل هذا الادب يوشك ان يسقط في التفاهة والخلو من المعنى ولكن ينبغي للاثر الفني مع ذلك الا يوضع لغاية منفعة فهو حتى اذا حمل رسالة اخلاقية فينبغي ان يتفادى الخطب الدعائية الى الاخلاق . وان قصة الفكرة هي دائما قصة رديئة اذا لم تقم فيها الفكرة بصورة ضمنية واذا بسطت بشكل نظريات بدلا من ان ينبثق انبثاقا من الحبكة او من نفسية الابطال .

ويصر أيوب في روايته الثانية (اليد والارض والماء) على الا يضحي بشيء من آرائه واهدافه في الحياة من اجل فنية الرواية. وقد اهتم فيها بالجزئيات دون التركيز على الاثر الاساسي لان الامر في نظره لا يتعلق كثيرا بتطور هذا الاثر بقدر ما يتعلق بتصوير الجزئيات وتجسيمها حتى لتطغى على الشخصية او الشخصيات الكبيرة في كيان الرواية كلها . كذلك ان غرضه الاول ارساء الثقل كله على تلك الامراض الاجتماعية والقاء اكبر قسط في الضوء عليها ليفتحها امام القارىء . (كما ان الجزء الاخير منها قد اقحم اقحاما عليها لان الكاتب اراد ان يربط الزرع والزراع بالمظاهرة التي اقامها العراقيون احتجاجا على معاهدة (بورتسماوث) والتي ذهب ضحيتها عدد قليل من الناس . وكل ما اراد الكاتب ان يتحدث في هذه الانتفاضة فالحقها بالرواية وربطها بها .

واتخذ من سليم بطلا في المظاهرة كما اتخذ منه بطلا في المزرعة (٣٨) وامتلات رواياته بسهام النقد الحادة لمظاهر الحياة الاجتماعية في العراق لى درجة الحشو والاملال (٣٩) .

كما زخرف هذه الروايات بالمواقف المصطنعة التي ما اوردها المؤلف الا لاثبات وجهة نظره او لعرض فكرة من افكاره او رأي من ارائه . فهو يريد ان يجمع ما بين (ماجد) المحامي و (سليم) الفلاح الثائر الجريح في المستشفى فيجعل صديقه ماجد الدكتور حسام وخطيبته الدكتورة (هيفاء) يقيمان حفلة لماجد في المستشفى يدار فيها الخمر ويجالسها فيها (سليم) المريض) في المستشفى(٤٠) او يضع كلاما غير مناسب على لسان بعض شخصياته فيقول (زباله) على سبيل المثال وهو فلاح متعصب لسنية المتحررة ، (لقد كسرت ام حسن (يعني زوجته) يد المسحاة على راسي).

ومما يستلفت النظر في بنائه الروائي قلة الحركة ، وغلبة السرد . وعجز المؤلف عن نقل قارئه الى جو الاجتماعات والاحاديث الدائرة بكثرة حتى يشعر انه بين الابطال يعايشهم ويشعر بشعورهم ويشاركهم في مسراتهم والامهم . فرواية الدكتور ابراهيم ليست الا دراسة لشخصية ابراهيم تتحرك رويدا رويدا وتغص بالتفاهات التي تبدو لا اهمية لها كتصوير علاقة (ابراهيم) الطفل بزوجة ابيه (سكينة) وابراز الاحساسات الجنسية لابراهيم عندما تضمه زوجة ابيه اليها (واخذتني بين زراعيها وشعرت بجسمها وثدييها ملتصقين بي ـ ودفعني الخوف الى الالتصاق بزوجة ابي واخفاء رأسي بين ثدييها الصغيرين ـ ورقدت الى جانبي فالتصقت بجسمها اللين ابتغي الدفء واحسست بذراعيها تضمان جسمي الى صدرها الدافيء فانتشيت (٤١) .

وربطها بالعاهرة التي ضاجعتها في دمشق اما اعجب ما خمرني من الاعتقاد بوجود تشابه غريب بين عاطفتها وعاطفة سكينة زوجة ابي الصغرى (٤٢) كما ان الارتباط من فصول رواياته ضعيف وتنقله من فصل الى فصل اشبه بتنقل كتاب السير الذين يعنون باضاءة جوانب مختلفة ، ولا تترتب عليهم ان اهملوا الحبكة او انقطعت الصلة بين جانب اخر . وقد حاول المؤلف ان يعطي ذلك الغيب عن طريق تقسيم روايته الى اقسام وفصول يضم كل قسم منها رحلة من حياة الشخصية فقد يربط المؤلف بين القسم الاول الذي يتحدث فيه الكاتب عن نفسه (والقسم الثاني الذي يتحدث فيه (الدكتور ابراهيم) عن طفولته عن طريق هذا التقسيم . فالقسم الاول استخدم فيه المؤلف طريقة السرد عن طريق ضمير المتكلم بينما اتبع في القسم الثاني طريقة الرسائل التي كان يرسلها ابراهيم الى المؤلف . وسلك ايوب نفس الطريق في (الرسائل المنسية) اما في (اليد والارض والسماء) فقد استخدم ضمير الغائب ولم يضطر الى تقسيمها الى اقسام كما فعل في روايتيه السابقتين ، بل اكثر من الفصول الصغيرة التي بلغت خمسة واربعين فصلا . وكان من الافضل ان يضم بعضها الى بعض ويختصر لتكون الفصول ادل على مراحل الرواية ونموها .

ويضاف الى ما سبق انه وقع في اخطاء متعلقة بالحدث فهو على سبيل المثال في (اليد والارض والماء) يذكر ان (المفوض) اخذ قطعتي الغيار اللتين بواسطتهما تشتغل مكائن السفن واخبرنا المؤلف في الفصل نفسه ان الاداتين قد اعيدتا (٤٣) فكيف اذن ذوى الزرع لانقطاع الماء طوال شهر كامل وليس هناك ما يحمل على الظن بفوات هذه المدة الزمنية .

والمادة الخام عند ايوب نماذج من الطبقة الوسطى بتقاليدها ومشاكل اجيالها الناشئة هذه الطبقة التي اخذت تتطور بسرعة فيما بين الحربين وما بعد الحرب الثانية وترمي عنها القشور التي تحجرت قرونا حولها فكانت تتلذذ باجترار عيوبها والتلمظ بنقائصها . وقصص ايوب كقصص عبد الحق فاضل كانت نوعا من عقاب الذات جلدت به البورجوازية العراقية نفسها ليتكشف فيها الانسان المتطور المتالم وراء القواقع التقليدية المتحجرة وكانت خطوة متمردة في سبيل مجتمع جديد . وهو ككل فنان يستغل هذه النماذج ليشرح لنا فلسفته التي تدور حول الحياة باعتبارها ظاهرة اجتماعية وقد دفعه نزوعه نحو نقد تقاليد المجتمع الى العناية بالسرد اكثر من عنايته بالحوار . بل ان الحوار يبهت في روايتي (الدكتور ابراهيم) و (الرسائل المنسية) وتقوم مقامه حركة استطرادية ويبرز في هذه الحركة اهتمام خاص بالشخصية شخصية الكاتب نفسه وشخصيات ابطاله . وكثيرا ما يحس ذاته بل انه ليجعلها ثورة التجربة ، ولم يكتف بذلك بل يذهب الى نقص الكبثير من شخصياته وفي هذه الحقيقة تكمن ميزات مخلوقاته . انه يخلق نفسه فيها ويصورها كما تراها عيناه كما فعل في شخصية (ماجد) في (اليد والارض والماء) وشخصية (عارف) في (الرسائل المنسية) .

ولا يمكن ان ينفصل ابطال ايوب عن بيئاتهم التي يعيشون فيها فالبطل عنده هو الواقع نفسه وهو الحياة في وطنه ، تلك الحياة التي كان ابطاله جزءا لا يتجزا منها ، وهو يمثل ابطاله في كفاحهم ضد حياتهم الاجتماعية الضيقة لذا يعد هؤلاء الابطال ممثلين للتيارات التقدمية والنزعات الاصلاحية في المجتمع العراقي .

وتبدو شخصيات ايوب الروائية بعض الاحيان وقد فقدت فرصها وارتكبت اخطاء شنيعة بالرغم من تكريسها لجهودها في سبيل تحقيق هدفها وهذا ناتج عن تمسك الكاتب بالواقع ورسمه قدر المستطاع فقد كان من الافضل مثلا لو نجح (ماجد) بطل (اليد والارض والماء) ورهطه متخطيا اشواك المجتمع صارعا عوامل الجشع والانانية كما نجح عارف (((الرسائل المنسية) فذلك اجدر بخدمة اغراض الكاتب في الاصلاح .

والكاتب يصف شخصياته ويحدد بعض لمحات قشرتها الخارجية فهو يصف الدكتور ابراهيم على سبيل المثال بقوله (شديد السمرة مدبب الانف ، نحيف البنية في ميل الى الطول ويسير بخفة وحذر

---

(٣٨) جميل سعيد المصدر السابق صفحة ٣٥ .

(٣٩) المصدر السابق : ١٠ ـ ١١ ، ٣٨ ، ٤٠ ـ ٤١ ، ١٤٣ ـ ١٤٤ ، ٢١١ ، ٥٤ ـ ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٨ ـ ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٦ ـ ٧٧ ، ٦٥ ـ ٦٦ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ـ ١٦١ ، ١٦٨ ـ ١٧٠ ، ـ ١٩٥ ـ على التوالي .

(٤٠) اليد والارض والماء ١٦ ـ ١٧ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ١٠٦ ، ١٢٩ ، ١٤٤ .

(٤١) اليد والارض والماء صفحة ١١٠ .

(٤٢) (اليد والارض والماء) صفحة ٧٤ ـ ٧٦ .

(٤٣) (اليد والارض والماء) صفحة ٧٤ ـ ٧٦ .

ويراقب بزاويتي عينيه دون ان يظهر عليه انه يرى ، ترى ظل ابتسامة خفيفة على وجهه (٤٤) ويصف زوجة (ابراهيم جني) بقوله: (بنظراتها الرقيقة المنبعثة من حدقتين زرقاوين ذواتي لون فاتح وكان وجهها رقيقا وشفتاها رقيقتين في طول لا يتناسب مع رقة الوجه والانف الاصغر وكانت رشيقة القامة لا تزيد في الوزن عن الدكتور ابراهيم ولكنها اطول منه قامة وكانت تتكلم بقوة وتنظر في عين الانسان رأسا وتسوق الحديث بصراحة دون تستر (٤٥) .

وسار في نفس الطريق في وصف والد الدكتور ابراهيم ووالدته ، وهذا ما فعله في وصف ماجد وسنية في (اليد والارض والماء) وهو يعمد احيانا الى تعمق شخصياته واستيطان ما يدور في داخل او تحليل نفسيتها وعواطفها . فالدكتور ابراهيم يحدثنا عن احساسه بعد عودته من انكلترا قائلا : (وقد سلمت على اخوتي بشيء من الاحتقار ومع ان ابي كان يسكن في هذه المرة بيتا كبيرا في الموصل فقد عفت ذلك البيت ولم احتمل البقاء فيه اكثر من يومين اما امي فقد علمت انها ماتت فلم اشعر بشيء من الاسف اذا لم اقل باني سررت ولقد رأيت كثيرا من رفاقي وصحبي يوم كنت تلميذا معهم فتجاهلتهم جميعا (٤٦) .

ويضيف عارف عواطفه نحو زوجته في رسالة بعثها اليها في الرسائل المنسية قائلا : (اي انني لا احبك ولا اشعر بميل اليك ولا اعجب بك ولكني اشعر بعطف عليك يقيدني الى حد الموت وكل ما اخشى هو ان اثور يوما على القيد الذي كبلني فيتلاشى هذا العطف (٤٧) .

ولم يصور المؤلف قلق شخصياته وصراعها العميق وانما يعرضها لمواقف متضاربة ولجملة من المفارقات المتكاملة ، يرجع فيها تغليب احد المواقف التي تقفها الشخصية . كما فعل في رسم شخصية (الدكتور ابراهيم) او يجعلها تنهزم من الحياة عموما وتبدو هذه الخاصية التي تتسم بطابع المأساة في شخصية (ماجد) بطل اليد والارض والماء) وشخصية (سها) بطلة الرسائل المنسية . ونجد في روايات المؤلف محاولة واضحة لرسم شخصيات منسقة يمنحها المؤلف حظا لا بأس به من التماسك ويضفي عليها قدرا من التطور كما فعل في شخصيتي (سليم) في (اليد والارض والماء) الذي نمت شخصيته من فلاح جاهل الى رجل مناضل نتيجة الاحداث التي مر بها فقد بدأ من نقطة معينة هي تفتحه وتطلعه الى هدف يريد بلوغه ويعاني عذابا كبيرا في سبيل ذلك ثم ينتهي الى الفشل ولم يبلغ غرضه وكذلك شخصية (عارف) الشاب المريض بالنرجسية وتقديس الذات .

وتميل بعض هذه الشخصيات الى العزلة والانزواء مثل شخصية نزار وسها واخرين يعيشون في ثورة الحياة يكافحون من اجل وجودهم مثل الدكتور ابراهيم وماجد وسنية والشيخ اسماعيل وسليم وزباله . وهم محبوبون لانهم صريحون لا يخافون في الحق لومة لائم . ولكن هذه الشخصيات تفتقر الى الصبغة الانسانية فهم قسمان خيره مثل ماجده وسنية وسليم او شريرة مثل الدكتور ابراهيم ووالده الشيخ اسماعيل والاقطاعي (صالح جبر) . وتبدو هذه الشخصيات نماذج جامدة لا تحركها العواطف الانسانية بل يد المؤلف فهي تتحول على يديه الى مجرد ادوات ورموز لتنقل لنا افكاره واراءه في الحياة والمجتمع وربما نستطيع ان نفهمها فهما اوضح اذا قارناها به نفسه او بموقفه من الحياة والقسم الاخر من عالم ايوب ينحصر في الشخصيات الشريرة وهم فريق رجال السياسة يحصي عليهم تصرفاتهم ويسجل مثالبهم ويعمق احيانا في سبر نفوسهم لكشف عنصر الشر فيها وبما انطبعت به اعمالهم من انانية وخداع واغفال المصلحة العامة التي فرض عليهم ان يسهروا عليها كما فعل مع الشخصيات التالية الدكتور ابراهيم ووالده الشيخ اسماعيل والاقطاعي صالح جبر وينجح الكاتب في اثارة القراء وملء صدورهم حقدا عليهم ، كما ينجح في اثارة الرثاء المشوب بالازدراء تجري في اعقاب اولئك الساسة الذين تنكروا على ما اصابوا من مفاهيم بعد الدرس والتحصيل العلمي وتجاهلوا المثل الاخلاقية العليا ، بينما على الابطال الذين يحبهم مثل ماجد وسنيه وسليم وحسام وعارف صفات تقريب من القلوب وتحيطهم بهالة من الاعجاب والاحترام وان بدأوا احيانا غريبي الاطوار لا يستطيعون التلاؤم مع الحياة .

ولغة الكاتب معبرة بصورة عامة وان كانت لا ترتفع الا قليلا عن الاسلوب الصحفي البسيط . ولا يخلو اسلوبه من اخطاء لغوية ومرد ذلك الى سرعته في النشر . فقد استعمل كلمة (المؤجرة) يريد بها (المستأجر) لان المؤجر الحكومة التي اجرت الارض والمستأجر هو ماجد وليس مؤجرا ، واللغة يجب ان تحرص على الا تطغى الكلمات الشوهاء على كتاباتنا تلك الكلمات التي توجد في الارض القاحلة للاستعمال الرسمي والتي تحملق نحونا في صفحات الجرائد واعمدتها (٤٨) .

وليس من السهل ان نقول ان لايوب اسلوبا خاصا به ، لانه اديب كثير القراءة تمتزج مطالعاته بعضها ببعض فتنال في كل فترة من حياته نصيبها في خلق لون من الادب فقد اصطنع لنفسه اول الامر اي في فترة ما بين الحربين اسلوبا سهلا لا يأبه باناقته ومال اخيرا اي بعد الحرب العالمية الثانية الى اسلوب رصين يحرص اشد الحرص على سلامته واناقته واصالة جرسه . ونمت دعايته ورقت وغلب طابعها على كتاباته كليا ولكنها لا تجود الا عند رسم اللوحات المستمدة من وصف الاشخاص لا من تركيب الحوادث فهو يسخر من الدكتور ابراهيم بقوله (وكان اكثر الجميع اهتماما بالدور الذي اسند اليه فقد شرع بتنفيذ مهمته فور خروج زائريه فجر مقالة ضافية ينتقد بها شؤون الزراعة ولم يعتمد على احصاء اوتقرير او بحث او تحر ذاتي فهو اكبر من ان يعتمد على مثل هذه الامور والا من فائدة الشهادة العالية (٤٩) .

ويستعين بمثل هذه السخرية للنيل ممن يصنعه هدفا لنقده وقد يسف احيانا في نقده بذكر نعوت مختلفة مثل قوله وهو يصف خصام مراجع مع الدكتور ابراهيم في دائرته (ورفعه عن كرسيه كما يرفع جروا ورمى به الى الارض (٥٠) .

ولم يكن ثمة مناص من ان يصبح مالكا لزمام السخرية اللاذعة وان يسود فيها لانه استهجن كثيرا من التقاليد والاتجاهات التي كانت سائدة في مجتمعه على انه مع استهجانه للكثير من هذه التقاليد والاوضاع لم يكف عن ابداء مظاهر الاعجاب لبعضها الاخر ومن اجتماع هذا الاعجاب والاستهجان ولدت السخرية في نفسه ولكن اشد السخرية واكثرها ايلاما تلك الصور الفارقة التي يوفق الكاتب الى رسمها احيانا (... وشكت امراة زوجها الى القضاة وادعت بانه لا يحبها لانه شيوعي وشتم ضابط الشرطة احد المتهمين

---

(٤٤) ايوب (الدكتور ابراهيم) ٢١ – ٣٤ .

(٤٥) ايوب (الدكتور ابراهيم) ٢١ ، ٣٤ .

(٤٦) المصدر السابق ١٣١ وكذلك صفحة ٦ ، ٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٤٧) ايوب (الرسائل المنسية) صفحة ٢٠ .

(٤٨) فيرا انيرا (انا ومهنة الادب) مجلة الشرق العدد – ٦ – ١٩٥٧ – .

(٤٩) (الدكتور ابراهيم) صفحة ١١ .

(٥٠) المصدر السابق صفحة ١٦ .

بهذه التهمة بقوله : اديسزيه لينكراد قاعد بموسكو يشرب عـرق وانتو تبثون الدعاية هنا . وانتهى لواط من اللواط بفلام وخـرج توا فاجتمع برفيق كـان يقرأ مقـالا في السفور وتحبيـذه فصـاح بوجهه : اما تستحوا في مطالعة هذه الوريقات التي تنشر المبـادىء الشيوعية والاباحية (٥١) .

وفي هذه الروح الساخرة تكمن المأساة لسخريته نابعة من الالم الذي يعيشه الشعب العراقي مقيدا بقيود اجتماعية وسياسية ثقيلة اما حواره فيشف عن تمكـن المؤلف من استخدام الحـوار وقدرتـه على ادارته رغم ما يلوح بانه يعبر عن افكار محدودة يوزعها بالتناوب على ابطاله لكي يصل من خلال الحوار الى مـا يبغي عرضه مـن اراء وافكار اصلاحية وان ذلك ضعفائي البناء لانه لا يساعد على رسـم الشخصيات وتطور الحدث .

وقد استخدم المؤلف حوارا بلغـة سليمة وسهلة تجمع بين رصانة الفصحى العامية ، التي يسمونها (باللغة الوسط) وهذا حـوار حسن ولا سيما وان ادبنا العربي ينتشر في جميع الدول العربيـة التي تربطنا بها اساسا اللغة العربية والكاتب الماهر هو من يستطيع ان يطعم اللغة بخصائص لغة الافراد او المقاطعات على ان يدخلها في روح اللغة العامة ومعنى هذا هو ان روح اللغة اعني خصائصهـا المميزة يجب ان تحترم حتى في الحوار الواقعي نفسه (والواقعية الحقيقية ليست في الالفاظ وانمـا هي الآراء . فالكـاتب القصيص الذي يقتصر في تصوير شخصياته على الاراء الواضحة التي تبدي عادة لا يؤدي رسالته ، اذ من واجبه ان يمد يدا جريئة تفتح الابواب وتشق الحجب (٥٢) .

وقد جعل ايوب شخصياته تتكلم بمستوى لغوي واحد في بعض المواقف وخاصة اذا كانت اللغة المستعملة غير العامية التي تتكلـم وتفكر بهـا في الحياة فيهدم اسسها الواقعية التي هـي السبب فـي كيانه لان الحدث انما يقوم على الاشخاص وتفاعل بعضهم مع بعـض فان جاءت محاكاة الاشخاص ناقصة جاء الحدث ناقصا وبالتالـي انعدمت الواقعية . ولعل السبب في ذلك ان كتابنا ومنهم المؤلـف لم يتخلصوا بعد من المفهوم القديم للادب الذي يقوم على الصيـاغة اللفظية . وهو يختلف تماما عن المفهوم الذي قامت عليه الروايـة في الاداب الغربية وهي الرواية التي يحاول كتابنا تقليدها يصـف الكاتب ما دار في اول لقاء للدكتور ابراهيم مع اهـل صديقـه (تومي) في انكلترا (وخاطبت اخاها قائلة : لست اغتفر لـك ان يكون لديك صديق عربي جنتلمان فلا تعرفني به الا بعد هـذا الوقت الطويل فاجاب ضاحكا لم ار منه ما يشجعني فقد كنت الاحظ نفوره من الاختلاط بالفتيات وكنت ارى وجهه يحمـر حتـى الاذن عندما يتكلم مع احدى التلميذات فلم ارد ان ازعجه ولكن لم اكـن اعلم انه فارس موفق الى هذا الحد في ميدان اجتذاب القلوب فحـذار (ياجني) انه فارس عربي من اسرة عريقة فاجابت (جني) تاالله ما اخبثك واجبت على الفور : ان الانسة لتجتذب القلوب النـافرة وتطلق الالسن المتلعثمة انها لا تتكلف ولا تتعجرف وان رقتها لتفيض فتعدي وصاحت الفتاة بامهـا ماما او تسمعين باي لغـة يتكلـم هـذا الفارس العربي الغزل ؟ ونظرت الام الى الاب وقالت ما اسرع : ما اسرع ما تآلفـا ،تالله من كـان يظـن ان عند العرب مثل هذه اللباقة. كم من الزمن قضيت في لندن يا بني ؟ فاجبتها متباهيا سنة واحـدة يا سيدتي . فصاح الاب ـ ان من يراك يظنك قد ولدت وترعرعت في هذه البلاد ولولا لونك الاسمر لما استطعت ان اعلم انك عربي .
وقالت الفتاة : كم اتمنى ان يكون لـي لونه اذن لاصبحت فتنةفيهذه البـلاد ... (٥٣) .

ويشبه ايوب محمود احمد السيد في انهمـا لا يكتبان الا ما يريانه ويلمسانه وتعد كتابات ايوب امتدادا لكتابات محمـود السيـد لانهمـا سلكـا طريقـا واحدا في كتابة الروايـة يهدف الاصـلاح الاجتمـاعي ونقد الاوضاع السياسية في العراق قبل اهتمامهمـا بما يستلزمـه الفن وهما يتشابهان في كتاباتهما بما فيها من صدق وتجـارب شخصية وتشعرك اللغة او الكلمة ان مشاهداتهما قطـع من نفسيهمـا ويحاربهما في ذلك جعفر الخليلي الا انه يختلف عنهما لانه قصـر اهتمامه على الظواهر الاجتماعية دون ان يسلك دروب السياسة في كتاباته كما فعلا .

ولذنون ايوب فضل كبير على القصـة العراقيـة فقد ضرب للقصيصين العراقيين مثـلا رائعـا للكاتب كي يخلص لفنه ويـوقف عليه همه وقد استرعى المؤلف منـذ ان نشر مجموعـاتـه القصصيـة ورواياته الدكتور ابراهيم في الثلاثينات انتباه مواطنيه لبساطـة موضوعاته واتجاهاته الثقافية والتعليمية كما لفت نظر النقـاد للسببيـن السابقيـن وحمل المستشرقـون اسمه ومؤلفاته الـى بـلاد اوروبـا وخصوصـا روسيـا فعرفت بفضله شيئا من الادب العربي في العراق .

عمر الطالب
كلية الآداب ـ جامعـة الموصل

---

(٥١) ايوب (المصدر السابق) .
(٥٢) جورج ديهامل دفاع عـن الادب صفحة ٢٢١ ، ٢٢٣ .

(٥٣) المصدر السابق صفحة ١١٦ ـ ١١٧ .

دراسـات ادبيـة

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	٤٠٠
من ادبنا المعاصر	د. طه حسين	٢٥٠
سارتر والوجودية	د .م البيريس	٢٠٠
تجديد رسالة الغفران	خليل هنداوي	٢٥٠
سيمون دوبوفوار	فرانسيس جانسون	٦٥٠
بابا همنغواي	ا . ا . هوتشز	٦٠٠
الادب المسؤول	رئيف خوري	٤٠٠
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	٣٥٠
وتبقى الكلمة (دراسات نقدية)	صلاح عبدالصبور	٢٥٠
بيـن آدم وحـواء	د . زكي مبارك	٢٥٠
التكسب بالشعر محمود احمد السيد	د . جلال الخياط	٢٥٠
رائد القصة الحديثة في العراق	د. علي جواد الطاهر	٤٠٠
مشكلة الحب	د . زكريا ابراهيم	٥٠٠
شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة	٢٥٠